تبادل الاحساس

Reciprocal Feeling

للدكتور نقولا حداد

ورث الانسان المتمدن عن الجماعة الانسانية الاولى احساساً نبيلاً وشعوراً سامياً حملهُ قديماً على مشاطرة الانسان في شتى مناحي الحياة نشعر بشعور غيره واشترك معهُ في احساسه سواء في الالم والفرح في الشدة والرخاء ، فساهمهُ اتعابه ومصاعبه وافراحه ومسراته . وقد نما هذا الاحساس في الاسرة الانسانية نماء تمشى مع سنن التطور والارتقاء حتى تشبَّعت به النفس البشرية فأهابت بصاحبها لزيادة افراح الحياة وجلب الهناء للبائس ، وتخفيف آلام المنكوب

وتكاد تنحصر هذه الحالة في الانسان فهي تقوى فيه على مقياس رقي دماغه وانتظامه وهي من اسمى خصائص الدماغ واشرفها تزيد في صاحبها روح الشفقة والرحمة وتملأه بعناصر العدل والتعاون

وقد نشأ هذا الاحساس في احضان المجتمع ودرج في مهاد الحياة الاليفة الوادعة في حين انهُ تلاشى وانعدم عند الانسان المتوحش الذي آثر العزلة ولازم الانفراد واستسلم لغرائزه الحيوانية الاصلية . وظلَّ هذا الاحساس في قرارة المجتمع البشري طيلة الاجيال الغابرة يسل عمله الصامت المستتر في صقل شخصيات جبارة هدفها الاعلى توثيق عرى المحبة وتوطيد اركان السلام وتمهيد سبل الخير والسعادة لابناء هذا العالم

والثابت ان هذا الاحساس مغروس في النفوس ، وهو من اقوى ما فطر عليه الانسان الاجتماعي ، واكثره تلوناً لسلوك الافراد والجماعات لانهُ يولد فينا انحيازاً في الشعور ورغبة في ادغام ذواتنا في الاشياء والاشخاص ، غير شاعرين بهذا الاشتراك حتى يفيق شعورنا من غفوته وخيالنا من سباته ، فندرك معنى ذلك الاندفاع الشديد وتركز ذواتنا بعد ذلك الانحياز الجلي . ومصداق قولي ارتياحنا الى الخطيب الذي يندفع في كلامه ، واندماج نفوسنا في سحر بيانه وعذوبة الفاظه . ولن نصحو من سحرنا واندفاعنا الاَّ عندما تفتر الخطيب عقبة

لفظية او معنوية تقف سيل اندفاعه الخطابي عندئذ تشعر بالاخفاق وتمض العين حياء وخجلاً وتخفض الرأس حزناً وغماً مشاطرينهُ حيرتهُ وارتباكه ، ومبادلينه عوامل الحيسة . وكذلك تظل نفوسنا تلوّن شعورها بحسب اندفاعه متشبعة بحالاته النفسانية فتسومهُ ساعات توهيج بحالات من التجلي والوحي ، وتنخفض عند ما توقفهُ عقبات الحصر والارتباك

والظاهر ان هذا الاساس توهان واقعي وتصوري وينشأ النوع الاول عن مشاهدة الحوادث والاحساس بالوقائع وهو اكثر شيوعاً بين طبقات البشر المؤتلفة في حين ان النوع الثاني ينشأ عن تصور الحالات التي لا تقع تحت الاحساس المباشر بل تقتصر على قوة التبصر وامتداد المخيلة الى الامور غير المنظورة ، كأن تهب الجماعات الى جمع الاعانات لقوم اصيبوا بقحط او مدينة دمرت بزلزال او مؤسسة التهمتها النيران . وقد تجلت نتائج هذا الاحساس التبادل في أعمال الرسل الكرام والانبياء العظام الذين أماروا سبيل البشرية بنورهم الساطع وأنوالهم الصائبة وأقالوها من كبوتها بتعاليمهم وبذلهم وشرائعهم المقدسة

نقف في حلبة السباق أو أمام فرقتين متباريتين فنجاز شعورنا تجاه فريق دون الآخر ونمضي في مشاطرة ذلك الفريق الاحساس عن طريق التشجيع والهتاف والاستفزاز كأننا مأجورون لذلك وتشعر عند انتصاره بالغبطة والارتياح ، وتتكش عند الانكسار وتبقى نفوسنا تلوّن تبعاً لدرجات الانتصار والانكسار حتى ينتهي اللعب ، فنشعر ان لا علاقة لنا بالنتصر سوى هذا الاحساس التبادل الذي أشرك نفوسنا فخراً وقسراً في اللعب

واذا أنحنا بنظرنا الى العلاء وشاهدنا الطيور تسبح في الفضاء بعضها ينشد والآخر يشقشق، وفريق يطارد فرائسه وآخر يغني بصغاره نشعر في جميع هذه الحالات مع سابحات الجو ، فنفرح لدى سماعنا الأغاريد الجميلة ، ويتحرك فينا العطف وتمثل أمامنا غرائز الأمومة لدى رؤيتنا الطير يغني بصغاره ، وتنفر من ذلك الجارح الذي يطارد العصفور الصغير ، ونشعر مع ذلك المخلوق الذي يطلب النجاة وينشدها بكل ما أوتي من قوة اشتقها من حبه للبقاء والحياة. لمست أشك يا صاح انك تحمل الى الفضاء وتشاطر العصفور الشفقة والرحمة وتتمنى لو أوتيت أجنحة توصلك اليه لتخلصهُ من مخالب عقاب الجو الفتاك . ولم يحرك مجال العطف في عروقك سوى هذا الاحساس التبادل الذي استفزك لحماية صغير الطير وحقير الحيوان

وتندلع نيران في بلدتك تحرق الاخضر واليابس وتروع الكهل واليافع فتندفع من تلقاء نفسك الى تبادل الاحساس والتضحية السامية في تخفيف نتائج تلك الكوارث والمصائب والمآسي ويصيب فيضان احدى القرى المجاورة لمدينتك فتهرع بدافع الانسانية النبيل لتبادل الاحساس قوماً أكتسح السيل مأواهم وهدم مساكنهم وجرف ماشيتهم . وفي الاعياد العامة والمهرجانات

الشعبية تأخذك نشوة الفرح فتشاطر ابناء قومك مسرات العيد وافراح الوطن . ولا تعرف لهذا تعليلاً سوى هذا الاحساس المشترك للجماعة البشرية تمكنه في شتى ضروب الحياة

وقد يتعدى هذا الاحساس عالم الحياة الى الشعور مع الجماد ومرعان ما فطن لتلك رواد الفن وكبار الادباء فأودعوه قطعهم الخالدة اذ اشركوا الطبيعة حوادث قصصهم وتآليفهم فرسموها مشرقة زاهية عندما يجلي البطل ظافراً منصوراً وقرنوها بالاضطراب والظلمة ساعات الشدة والضعف . فالقمر يتلألأ بأشعته الفضية ساعة يناجي الحبيب معبودته ، والرعد يقصف والعاصفة تهب ساعة يتوقع البطل المغوار فاجعة أليمة او مأساة مفزعة

وقابلية تبادل الاحساس والامتزاج بالشعور لا تقف عند حد العلائق الانسانية بل تتعداها الى الجماد ، وها نفوسنا تتكمش لدى مشاهدة صخرة شاهقة تتحدر على حصاة صغيرة او لدى رؤية عمود صغير يحمل عمارة كبيرة وقد نعجب بالبحر الواسع الذي يوحي الينا الاتساع والجبل العالي الذي يلهمنا العظمة والنهر الجاري الذي يدعونا الى الحركة فنحن في كل هذه الحالات نبادل الجماد الاحساس فنرثي للحصاة المتقتة ونشفق على العمود الرازح تحت ثقل البناية وندهش لسعة البحر ونعجب بعظمة الجبل ونطفر مع حركة النهر وانسيابه البديع وتكون الطبيعة قد ألفتنا ذواتنا فتقربنا من مظاهرها وارتبطنا بأوصافها ودغمنا نفوسنا فيها

ويختلف هذا الاحساس في الناس قوة وضعفاً فهو أظهر في الانبياء والمشترعين منهُ في السوقة والعامة وهو عامل اساسي في بناء الشخصية وعنصر فعال في تمامها . فهذه شخصية عاجزة لا تقيم احساسها وتلك اخرى تشع نبلاً وتشيع عاطفة بدفعها الى المثال الاعلى والكمال المنشود

اما الاحساس التصوري فقد شاع في نفوس هداة البشرية ومصلحيها فاستقرؤا آلامها في الماضي السحيق وتصوروا مصائبها في المستقبل الغامض البعيد فعملوا على اصلاح اوضاعها واسكان اوجاعها وتجديد نظمها ومرعان ما سنوا الشرائع الحكيمة ليحولوا دون عسف الجماعات القوية وثراء اقليات معدودة . ومن ثمار هذا الاحساس ماتراه بين الآونة والاخرى من تحفز الجماعات النائية لطلب المساعدة وجمع التبرعات لقوم نكبوا في زلزال مدمر او فيض عميم او حريق شامل . وقد تبين ان الارابطة تربطهم باولئك الاقوام غير البحار الشاسعة والصحاري الواسعة سوى رباط الاحساس المشترك والشعور المتبادل الذي وقع على اوتار قلوبهم نغمات العطف والحنان وهزَّ اغشية نفوسهم بقدس المحبة والاخاء . وانا على مثل اليقين ان البشرية تصل مصاف الانبياء الاطهار وان ارضنا تصبح فردوس النعيم وجنة عدن ، حالما تنظم البشرية علاقاتها وتسوّي مشكلاتها على ضوء هذا الاحساس المتبادل السامي وذاك الشعور المشترك الرفيع فتشعر اننا لعمل كافراد وجماعات لخير بلادنا واقوامنا ولاعادة امجاد اسلافنا ومرسلينا

جزء من طبق من الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني عليه زخرفة من نباتات وأوراق شجر ورسم انسان وفي الجزء الأيمن كلمة قد تكون (جعفر) ومما يستوقف النظر ان غطاء الرأس يشبه ما كان معروفاً عن بعض الفرسان الأوربيين في القرون الوسطى

جزء من طبق من الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني عليه زخرفة من رسم فارس يقصد الصيد كما يظن من صورة البازي الجاثم على يده اليسرى وعلى الفارس رداء من نسيج مزين بدوائر فيها صور طيور . ومما تجدر ملاحظتهُ شكل العمامة التي يلبسها والذؤابتان المتدليتان على خديه